الكتب

قصة الفلسفة اليونانية

تصنيف الأستاذين أحمد أمين وزكى نجيب محمود

للدكتور عبد الوهاب عزام

أستاذنا أحمد الأمين رجل بارك الله عليه ، فرزقه من الفكر السليم ، والعلم الواسع ، والدأب على الأعمال وتأديتها فى أوقاتها ، وترتيبها ما أتاح الله للتأليف القيم النافع . فأخرج للناس فى بضع سنين كتابيه فجر الاسلام وضحى الاسلام

والأستاذ منذ عهد بعيد معنى بالفلسفة ، ترجم فى مبادئها كتاباً عن الانجليزية ، قبل خمسة عشر عاماً ، ودرس نواحى منها فى درسه علم الأخلاق والتأليف فيه . وقد أحسّ ، وهو يؤلف ضحى الاسلام ، حاجة الى الاستزادة من الفلسفة اليونانية ليستعين بها على فهم الفلسفة الاسلامية . يقول الأستاذ : « حتى إذا عرضت لوصف الحياة العقلية عند العرب وألفت فى ذلك فجر الاسلام وضحاه ، ووصلت فى التأليف إلى المعتزلة والمتكلمين فى العصر العباسى ، رأيت أنهم تعرضوا لمسائل هى من صميم الفلسفة اليونانية ، ورأيت أن لابد لفهمها من الرجوع إلى منابعها لأعرف كيف فهموها وكيف نقلوها وما الذى زادوا عليها ، فاضطررت إلى العودة إلى كتب الفلسفة أستعرض مسائلها ، وأتفهم غوامضها الخ »

قرأ الأستاذ ودوّن خلاصة ما قرأ ، فأخرج بمعونة شريكه الكتاب الذى سماه « قصة الفلسفة اليونانية » . يقول الأستاذ :

« فلما عاودت القراءة فى الفلسفة بدت منى رغبة فى أن أكتب خلاصة ما أقرأ فذلك أدعى إلى وضوح الفكرة فى ذهنى ، وإلى أن ينتفع بما انتفعت به غيرى . وكان من حسن حظى أن رأيت أخى وزميلى الأستاذ زكى نجيب محمود يرغب رغبتى ويتمنى أمنيتى ، فتعاونا معاً على اخراج هذا الكتاب وتقديمه للقراء »

— ٢ —

وكنت وعدت أن أكتب فى مجلة الرسالة عن « ضحى

بمهدها الفنى ؛ وكان أستاذه هنالك تسنجاريللى المؤلف الموسيقى المشهور وملحن رواية « روميو وجولييت » . ولم تمض بضعة أشهر حتى وضع الطالب بلليني أول « أوبراته » وعنوانها « أدلسون وسالفيني » ، ومثلت فى قاعة المعهد فنالت نجاحاً عظيماً حتى انها كانت تمثل كل يوم أحد . ولما رأى الفتى نجاحه السريع وضع قطعة أخرى عنوانها « بيانكا وفرناندو » ، ومثلت فى مسرح سان كارلو ، فنالت نجاحاً أعظم ، وذاع صيت الفتى الفنان حتى أن دومنيكو باربايا أعظم مخرجى العصر دعاه إلى وضع قطعة جديدة تمثل فى مسرح « سكالا » بميلانو ، وهو أعظم مسارح إيطاليا يومئذ ؛ فسافر بلليني إلى ميلانو ووضع قطعته الشهيرة « القرصان » (سنة ١٨٢٧) ، فكان ظفره بتمثيلها عظيماً ، وارتفع فى الحال إلى صف أعظم فنانى العصر ؛ وأتبعها بقطعة جديدة عنوانها « الأجنبية » ثم بأخرى عنوانها « حيالة الليل » ثم « نورما » وهى قطعة موسيقية بلغ بها ذروة مجده ، وبعدئذ وضع بلليني قطعاً خاصة لمسارح إيطاليا الشهيرة فى البندقية ونابولى وغيرها ، ثم سافر إلى باريس ووضع هناك قطعة « البورتانيين » فنالت نجاحاً عظيماً ، ولكن المرض كان قد أخذ يسرى إلى الفنان الفتى وأخذت صحته تسوء بسرعة ؛ ولم يلبث أن توفى فى باريس فى سبتمبر سنة ١٨٣٥ ودفن بمقبرة « بيرلاشيز » ثم نقلت رفاته بعد ذلك إلى مسقط رأسه « قطانية » سنة ١٨٧٦

وقد احتفلت الأوبرا النمسوية (بمدينة ڤينا) بذكرى بلليني احتفالاً خاصاً مؤثراً ، فأحييت ذكرى روايته « حيالة الليل » بتمثيلها مدى أسبوع لأنها فى هذا الشهر شهر مايو مثلت بالأوبرا النمسوية منذ مائة عام

الاسلام » ، وحالت حوائل دون المبادرة بانجاز الوعد ؛ ثم تيسر لي الفراغ لكتابة المقال الأول ، وبينا أنا في شغل به مرت على لجنة التأليف والترجمة والنشر فأخذت الكتاب الجديد « قصة الفلسفة اليونانية » . ولما أخذت مكاني في قطار حلوان فتحت الكتاب لأقرأ مقدمته وفهرسه ، ثم أطبقه إلى أن تتاح فرصة لقراءته . فلما قرأت المقدمة شاقني ما بعدها ، وقادني حسن البيان ، وسلاسة العبارة ، وسهولة الشرح من صفحة إلى أخرى حتى عبرت من الكتاب صفحات كثيرة ، فآثرت أن أتمه ، وبدا لي أن أكتب عنه إذا أتممته ، ناقداً حاسباً ما للكتاب وما عليه . فلما انتهت بي القراءة إلى فصل سقراط قلت : هنا فاصلة يحسن الوقوف عندها فقد كان سقراط فصلاً في تاريخ الفلسفة تغيرت به سيرتها ، فوقفت القراءة لأكتب عما قرأت ، وأجعل بقية الكتاب موضوع مقال آخر . وهكذا يأبى الأستاذ أحمد الأمين إلا أن يعمل ويشغلنا بعمله عن أعمالنا

— ٣ —

أراد المصنفان أن يعرضا على القارىء العربي الذي لا علم له بالفلسفة اليونانية قصة هذه الفلسفة في نشأتها وتطورها في ايجاز وايضاح ، وتسهيل وتيسير ، وبُعد عن التعمق والتفصيل ، والتقصي في البحث . وقد تسنى لهما ما أرادا فجاء الكتاب كما ابتغيا « قصة » يسيرة شائقة ، كفيلة بتقريب الفلسفة اليونانية إلى المبتدئين . ولا يحتاج الناقد إلى تبيين هذا ، فكل صفحة في الكتاب شاهدة به . يبدأ المصنفان كل فصل ببيان ما يريدان ، حتى إذا بلغا ما أرادا أجملا ما قدّما ، فاذا بدأ الفصل التالي ذكّرا القارىء بما قدّماه . حتى إذا جاوزا عهداً من عهود الفلسفة إلى عهد آخر وقفا بالقارىء يلفتانه إلى ما أوضحا من قبل ليتعرف فرق ما بينه وبين ما يستقبله في العهد التالي ، وهلم جرا

وقد قرأت ما قرأت من الكتاب مثنياً على المصنفين مسروراً راضياً إلا هنات يسيرة أعدّ منها ما يلي :

١ — قال المصنفان إن من الفروق بين العلم والفلسفة أن كل علم يبحث في ظواهر محدودة من العالم ، وأن الفلسفة تحاول النفاذ إلى بواطن الأشياء كلها واستكناه حقائقها . وقد أوضحا هذا إيضاحاً حسناً وساقا الأمثلة ، ولكن فرطت في أثناء ذلك عبارات تثبت أن العلوم تقنع بالظن وأن الفلسفة لا تقف دون اليقين . فقالا في صفحة ١٠ : « ولكن هذا الذي أقنع العلم لن يرضي الفلسفة . هي لا تطمئن إلى هذا الركون والركود ، ولا تستقر إلا إذا وجدت لكل ظاهرة ما يؤيدها تأييداً تاماً . » وقالا في صفحة ١٣ : « وهي (الفلسفة) لا تجيز لنفسها أن تركن إلى حكم من الأحكام بالغاً ما بلغ من القوة والذيوع إلا إذا أيده الدليل القاطع » وفي الصفحة نفسها : « كذلك لا ترضى الفلسفة أن تسلم بصحة مبدأ أو فكرة إلا إذا ثبتت لديها ثبوتاً لا يدع مجالاً للريب والشك . فهاتان صفتان تستطيع بهما أن تفرق بين العلم والفلسفة : »

وهذا كلام يُفهم القارئ أن الفلسفة قائمة على اليقينيات وأن العلوم قائمة على الظنيات ، والمعروف غير هذا . فقد كانت الفلسفة نظراً عاماً في الكون ظاهره وباطنه ، ثم تحددت مواضع النظر وأدرك الباحثون قوانين في العالم نشأت بها العلوم المختلفة يؤيدها التجربة والاستقراء والبرهان العقلي . وكلما خرجت طائفة من ظواهر الكون من الحدس إلى اليقين خرجت من حضانة الفلسفة حتى لم يبق للفلسفة في العصر الحاضر إلا موضوعات لم تحط بها التجارب ولم تضبطها البراهين وهي ماوراء الطبيعة ، والنفس ، والأخلاق ، والمنطق ، والجمال الخ

نحن نعترف بأن العلم لا يبحث في حقيقة موضوعه ولكن في خصائصه . فهو لا يبالي بحقيقة الزمان والمكان والمادة ، بل يبحث في خصائصها ومظاهرها ، ولكن هذا لا يستلزم أن تكون العلوم ظنية والفلسفة يقينية ، بل مجال الظن والفرض أوسع في الفلسفة منه في العلم . وقصارى القول أنه ينبغي التفريق بين غاية العلم والفلسفة ومباحثهما ، فغاية العلم بحث الظواهر ولكن مباحثه قائمة على الحس والتجربة ، وغاية الفلسفة النفاذ إلى حقائق الأشياء ولكن مباحثها مليئة بالحدس والظن

٢ — أين بدأت الفلسفة ؟

قال المصنفان تحت هذا العنوان : « لعلك الآن في ضوء هذا

التحليل الذى تقدمنا به اليك تدرك معنا أن هذا الضرب من التفكير الذى يحاول أن يوحد بين ظواهر الكون المتنافرة والذى يرفض التسليم الساذج رفضاً تاماً ، والذى يسمو بالعقل فوق المستوى المادى من حيث أسلوب التفكير وصور الفكر — نقول لعلك تذهب إلى ماذهبنا اليه من أن هذا التفكير الفلسفى الصحيح لم ينشأ ولم يتم إلا عند شعب واحد دون الشعوب القديمة جميعاً هم اليونان القدماء : »

وقالا فى الصفحة ١٦ : « لم تستمد الفلسفة اليونانية أصولها من تلك الأمم القديمة ولكن خلقها اليونان خلقاً وأنشأوها إنشاء . فهى وليدتهم وربيبتهم ليس فى ذلك ريب ولا شك : »

فأما ادعاء أن الفلسفة على هذا النحو لم تنشأ إلا عند اليونان فهو مجازفة . ولو اطلعا على فلسفة الهند مثلاً لاقتصدا فى هذه الدعوى . ولعلهما يسمعان عما قليل بقصة الفلسفة الشرقية كما أسماها الناس قصة الفلسفة اليونانية . وقد ذكرا فى أول الفصل الثانى أن فيثاغورس رحل إلى مصر وبلاد الشرق ، وقالا فى آخره : « وأنت ترى من ذلك أنهم (الفيثاغوريين) خطوا بالفلسفة خطوة جديدة نحو التفكير المجرد ، فبدأت الفلسفة منذ ذلك الحين تتحلل بعض الشىء من تلك النزعة الطبيعية التى سادت عند فلاسفة يونيا لتستقبل صبغة جديدة — هى صبغة الفلسفة فى أصح معانيها — أعنى التفكير المحض فيما وراء الطبيعة وظواهرها . الخ » وقالا فى الفصل السادس إن ديمقريطيس « كان واسع العلم ، راغباً فى تحصيله رغبة حارة . . . . . وقد حفزته تلك الرغبة الملحّة فى التحصيل إلى الرحلة فى أقطار الأرض ، فزار مصر وجاس خلالها ، وعرّج على بابل وطوّف فى أنحائها . » فان يكن فيثاغورس الذى تعلم فى مصر ورحل إلى الشرق قد نحا فى الفلسفة نحواً جديداً ، وارتقى بها إلى التفكير المجرد الذى هو أقرب إلى الشرقيين ، فلِمَ نجزم جزماً أن فلاسفة اليونان لم يستمدوا قطُ من الأمم الأخرى ؟ وإن يكن ديمقريطيس وهو امام مذهب فى الفلسفة رحل إلى مصر وبابل فى طلب العلم فكيف نجزم بأن اليونان لم يأخذوا عنهم « ليس فى ذلك ريب ولا شك »

٣ — وقالا ص ٣٣ أثناء الكلام على آراء الفيثاغوريين : « أى انك تستطيع أن تتخيل فى غير عسر كوناً يخلو من اللون والطعم والحرارة » . وقد جهدت أن أتخيل عالماً لا لون له فلم يتيسر لى

٤ — فى الكلام على هرقليطس ص ٥٦ « بعد أن عمر نحو ستين عاماً كان فيها معاصراً لبارمنيدز . » والعبارة توهم أنه عاصر بارمينيدز ستين عاماً ، وليس هذا مقصوداً كما يعرف من تاريخ الرجلين

٥ — فى الكلام على السوفسطائيين ص ٩٩ : « ومن أجل ذلك سمى اللعب بالألفاظ والتهريج فى الحجج سفسطة اشتقاقاً من السوفسطائيين . » وكان ينبغى هنا تفسير كلمة سوفسطائى فى وضعها الأصلى حتى لا يتوهم القارئ أن فيها معنى السفسطة المعروف

٦ — تكلم المصنفان على الأحوال السياسية والاجتماعية فى بلاد اليونان عند ظهور السوفسطائيين ليبينا أثرها فى فلسفتهم ، ولم يذكرا آثار الحروب الفارسية المتمادية ، وكانت ذات أثر بليغ فى اليونان

وهناك هنات لفظية كثيرة نتركها حتى نفرغ من نقد الآراء والمعانى

عدد الرسالة الممتاز

ليس لدى الادارة من هذا العدد ما يصح أن تبيعه بأى ثمن . لذلك لا تستطيع الادارة أن ترسله إلى من يطلبه

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألمانى

ترجمها الأستاذ أحمد حسن الزيات

ثمنها ١٥ قرشاً